البُكاء والتّباكي مِن خَشية الله

جمودُ العين، من قَسوة القلب

ابن فهد الحِلّي قدس سره

(عِدّةُ الدّاعي ونجاح السّاعي) كتابٌ علميٌّ، أخلاقيٌّ، يبحث في الدّعاء، وماهيّته، وآثاره، وخصوصيّاته، وفضيلته، والتّرغيب فيه، لمؤلّفه الفقيه أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن فهد الحلّيّ الأسديّ (ت: ٨٤١ هجريّة)، وقد أورد فيه جملة من الأدعية، والأذكار، والعوذات. ومنه هذا الفصل بعنوان: «في فضيلة البكاء والتّباكي حال الدّعاء».

البكاء حالَ الدّعاء، سيّد الآداب وذروة سنامها، [للأسباب التالية]:

أوّلاً: لِدلالته على رقّة القلب، الذي هو دليل الإخلاص؛ والذي عنده تحصل الإجابة. قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**إذَا اقْشَعَرَّ جِلْدُكَ ودَمَعَتْ عَيْنَاكَ فَدُونَكَ دُونَكَ فَقَدْ قُصِدَ قَصْدُكَ**».

ولأنّ جمودَ العين من قساوة القلب على ما ورد به الخبر، وهو يؤذِن بالبُعد من الله سبحانه وتعالى. وفي ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «**يَا مُوسَى لَا تُطَوِّلْ فِي الدُّنْيَا أَمَلَكَ فَيَقْسُوَ قَلْبُكَ، والْقَاسِي الْقَلْبِ مِنِّي بَعِيدٌ**».

وقاسي القلب مردودُ الدّعاء لقوله عليه السلام: «**إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً بِظَهْرِ قَلْبٍ قَاسٍ**».

ثانياً: لِما فيه من الانقطاع إلى الله تعالى، وزيادة الخشوع. قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً نَصَبَ فِي قَلْبِهِ نائِحَةً مِنَ الحُزْنِ، فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ، وَإنَّهُ لا يَدْخُلُ النّارَ مَنْ بَكى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعالى حَتّى يَعودَ اللَّبَنُ إلى الضَّرْعِ، وَإنَّهُ لا يَجْتَمِعُ غُبارٌ في سَبيلِ اللهِ وَدُخانُ جَهَنَّمَ في مَنْخَرَيْ مُؤْمِنٍ أَبَداً، وَإذا أَبْغَضَ اللهُ عَبْداً جَعَلَ في قَلْبِهِ مِزْماراً مِنَ الضَّحِكِ، وَإنَّ الضَّحِكَ يُميتُ القَلْبَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ**».

ثالثاً: لموافقتِه أمرَ الحقّ سبحانه وتعالى في وصاياه لأنبيائه، حيث يقول لعيسى عليه السّلام: «**يَا عيسى، هَبْ لي مِنْ عَيْنَيْكَ الدُّموعَ، وَمِنْ قَلْبِكَ الخَشْيَةَ، وَقُمْ عَلى قُبورِ الأَمْواتِ فَنادِهِمْ بِالصَّوْتِ الرَّفيعِ، فَلَعَلَّكَ تَأْخُذُ مَوْعِظَتَكَ مِنْهُمْ، وَقُلْ: إنّي لاحِقٌ في اللّاحِقينَ. صُبَّ لي مِنْ عَيْنَيْكَ الدُّموعَ، وَاخْشَعْ لي بِقَلْبِكَ. يا عيسى، اسْتَغِثْ بي في حالاتِ الشِّدَّةِ فَإنّي أُغيثُ المَكْروبينَ، وَأُجيبُ المُضْطَرّينَ وَأَنا أَرْحَمُ الرّاحِمينَ**».

رابعاً: لما فيه من الخصوصيّات والفضائل التي لا توجَد في غيره من أصناف الطّاعات. وقد رُوي أنّ بينَ الجنّةِ والنّارِ عَقَبَةً لا يجوزُها إلّا البَكّاؤونَ من خَشيةِ الله تعالى. ورُوي عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنَّ رَبّي تَبارَكَ وَتَعالى أَخْبَرَني فَقالَ: وَعِزَّتي وَجَلالي ما أَدْرَكَ العَابِدُونَ مِمّا أَدْرَكَ البَكّاؤونَ (دَرَكَ البُكاءِ) عِنْدي شَيْئاً، وَإنّي لَأُبَني لَهُمْ في الرَّفيعِ الأَعْلى قَصْراً لا يُشارِكُهُمْ فيهِ غَيْرُهُمْ**».

وفي ما أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «**وَابْكِ عَلى نَفْسِكَ ما دُمْتَ في الدُّنْيا، وَتَخَوَّفْ العَطَبَ وَالمَهالِكَ، وَلا تَغُرَّنَّكَ زينَةُ الحَياةِ الدُّنْيا وَزَهْرَتُها**».

وإلى عيسى عليه السلام: «**يا عيسى ابْنُ البِكْرِ البَتولِ! ابْكِ عَلى نَفْسِكَ بُكاءَ مَنْ قَدْ وَدَّعَ الأَهْلَ وَقَلى الدُّنْيا وَتَرَكَها لِأَهْلِها، وَصارَتْ رَغْبَتُهُ فيما عِنْدَ إلَهِهِ**».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَمّا كَلّمَ اللهُ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ قال [موسى]: إلهي ما جَزاءُ مَنْ دَمَعَتْ عَيْناهُ مِنْ خَشْيَتِكَ؟ قالَ [تعالى]: يا موسى أَقِي وَجْهَهُ مِنْ حَرِّ النّارِ، وَآمَنُهُ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ**».

وقال الإمام الصّادق عليه السلام: «كُلُّ عَيْنٍ باكِيَةٌ يَوْمَ القِيامَةِ إلّا ثَلاثُ عُيونٍ: عَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحارِمِ اللهِ، وَعَيْنٌ سَهِرَتْ في طاعَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَكَتْ في جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ».

وعنه عليه السلام: «ما مِنْ شَيْءٍ إلّا وَلَهُ كَيْلٌ أَوْ وَزْنٌ إلّا الدُّموع، فَإِنَّ القَطْرَةَ تُطْفِئُ بِحاراً مِنَ النّارِ، فَإِذا اغْرَوْرَقَتْ العَيْنُ بِمائِها لَمْ يَرْهَقْ وَجْهَهُ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ، فَإِذا فاضَتْ، حَرَّمَهُ اللهُ عَلى النّارِ، وَلَوْ أَنَّ باكِياً بَكى في أُمَّةٍ لَرُحِموا».

وفي خُطبة الوَداعِ لرسول الله صلّى الله عليه وآله: «ومَنْ ذَرَفَتْ عَيْناهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ كانَ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ مِنْ دُموعِهِ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ تَكونُ في ميزانِهِ مِنَ الأَجْرِ، وَكانَ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ عَيْنٌ مِنَ الجَنَّةِ عَلى حافَّتَيْها مِنَ المَدائِنِ وَالقُصورِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ». وعن أبي جعفر عليه السلام أنّ إبراهيم النّبيّ عليه السلام قال: «إلهي، ما لِعَبْدٍ بَلَّ وَجْهَهُ بِالدُّموعِ مِنْ مَخافَتِكَ؟ قالَ اللهُ تَعالى: جَزاؤُهُ مَغْفِرَتي وَرِضْواني يَوْمَ القِيامَةِ».

وروى إسحاقُ بنُ عمّار، قال: «قلتُ لأبي عبد الله عليه السّلام: أدعو وأشتهي البكاءَ فلا يجيء، وربّما ذكَرتُ مَن ماتَ من بعضِ أهلي فأَرِقُّ وأبكي فهل يجوزُ ذلك؟ فقال: نَعَمْ، تَذَكَّرْهُمْ، فَإِذا رَقَقْتَ فَابْكِ لِرَبِّكَ تَبارَكَ وَتَعالى».

نصيحة

وإذا وُفِّقتَ للدّعاء، وساعدتْك العينانِ على البكاء، وجادتْ لك بإرسال الدّموعِ السِّجامِ عند تذكارك الذّنوبَ العظامَ والفضائحَ في يومِ القيامة، وإشفاقَ الخلائق من المَلِك العلّام، وتمثُّلَ ما يحلُّ بالخلائق - وقد خرِستْ الألسنُ وخمَدتْ الشّقاشقُ، وكانت الجوارحُ هي الشّاهدَ والنّاطقَ، وعظُمَ هنالك الزِّحام [الرائحة الكريهة]، فألجمَهم العرقُ وبلغ شحومَ الآذان - يومَ تُبلى السّرائرُ، وتظهر فيه الضّمايرُ، وتنكشف فيه العورات، ويؤمَن فيه النّظرُ والالتفات، وكيف وأنّى لهم بالنّظر؟ ومنهم المسحوبُ على وجهه، والماشي على بطنه، ومنهم من يوطَئ بالأقدام مثلَ الذّرّ، ومنهم المصلوبُ على شفير النّار حتّى يفرَغَ النّاسُ من الحساب، ومنهم المُطوّقُ بشُجاعٍ [ثعبان] في رقبته تنهشُه حتّى يفرغَ النّاسُ من الحساب، ومنهم من تُسلَّطُ عليهم الماشيةُ ذواتُ الأخفاف فتطؤه بأخفافها، وذواتُ الأظلاف فتنطحُه بقرونها وتطؤه بأظلافها.

وأمعِنْ النّظرَ والفكرَ في أحوال النّاس في ذلك اليوم، وما قبلَه، وما بعدَه، من شقاوةٍ أو سعادةٍ، فإنّه يحصُلُ لك باعثُ الخوفِ لا مَحالة، وداعيةُ البكاء، والرّقةُ، وإخلاصُ القلب، فانتهزْ فرصةَ الدّعاء، واعلم أنّه مِن أنفَسِ ساعاتِ العمر، وعليك بالاشتغال في تلك الحال بصاحب الجلال عن طلب الآمال والتّعرُّضِ للسّؤال، وإذا سألتَ، فليكُنْ مسألتُك وطلِبتُك دوامَ إقبالِه عليك وإقبالِك عليه، وحسنَ تأدُّبِك بين يديه، واسألْ ما يبقى لك جمالُه، ويُنفى عنك وبالُه، والمالُ لا يبقى لك ولا تبقى له.

> وإذا سألتَ، فليكُنْ مسألتُك
> وطلِبتُك دوامَ إقبالِه عليك
> وإقبالِك عليه، وحسنَ تأدُّبِك
> بين يديه، واسألْ ما يبقى لك
> جمالُه، ويُنفى عنك وبالُه

تنبيه!

واعلم أنّ البكاءَ والعجيجَ إلى الله سبحانه فَرَقاً من الذّنوبِ وصفٌ محبوبٌ، لكنّه غيرُ مُجْدٍ مع عدم الإقلاع عنها والتّوبة منها. قال سيّد العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام: «وَلَيْسَ الخَوْفُ مَنْ بَكى وَجَرَتْ دُموعُهُ ما لم يَكُنْ لَهُ وَرَعٌ يَحْجُزُهُ عَنْ مَعاصي اللهِ، وَإِنَّما ذَلِكَ خَوْفٌ كاذِبٌ».

وعن النّبي صلّى الله عليه وآله: «مَرَّ موسى بِرَجُلٍ مِنْ أَصْحابِهِ وَهُوَ ساجِدٌ وَانْصَرَفَ مِنْ حاجَتِهِ وَهُوَ ساجِدٌ، فَقالَ: لَوْ كانَتْ حاجَتُكَ بِيَدي لَقَضَيْتُها لَكَ؛ فَأَوْحى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: يا موسى! لَوْ سَجَدَ حَتّى يَنْقَطِعَ عُنُقُهُ ما قَبِلْتُهُ أَوْ يَتَحَوَّلَ عَمّا أَكْرَهُ إلى ما أُحِبُّ».

استنزالُ القِيم الإلهيّة إلى عالَم المحسوسات

الوحي هو المربّي الأوّل للبشريّة

الشّهيد السّيد محمّد باقر الصّدر قدس سره

محاضرة حول وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله للشهيد السيد محمد باقر الصدر قدّس سرّه، ألقاها في النجف الأشرف يوم الثامن والعشرين من صفر سنة ١٣٥٨ للهجرة (١٩٦٨م).

المقال التالي، مختصر بتصرّف عن كتاب (أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة)، من إصدار (مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر)، وقد ضمّ مجموعة من محاضرات السيد الشهيد رضوان الله عليه، ومن ضمنها المحاضرة المشار إليها.

اليوم نجتمع بمناسبة أعظم فاجعةٍ مرّت على تاريخ البشريّة على الإطلاق، وهي فاجعة تمثّلت بانقطاع الوحيّ إثر وفاة رسول الله، صلّى الله عليه وآله، من جهة، وبانحراف الأُمّة بعد المؤامرة التي حاكها فريق من المسلمين للاستيلاء على السّلطة من جهة أخرى، خلافاً لما قرّره النبيّ وخطّه للنّاس بأمرٍ من الله تعالى.

أودُّ الآن أن أقتصر على الجزء الأوّل من هذه الفاجعة، أن أنظر إلى الحدث الواقع في هذا اليوم بوصفه حدثاً قد وَضع حدّاً لتلك الظاهرة العظيمة التي اقترنت مع هبوط الإنسان على وجه الأرض، ظاهرة الوحي، ظاهرة ارتفاع الإنسان وتساميه للاتّصال المباشر بالله سبحانه وتعالى.

الوحي الذي يتمثّل في اتصالٍ خاصٍّ بين الإنسان وبين الله هو ضرورةٌ من ضرورات تكريم الإنسان على وجه الأرض. وبهذا خَلَقَ الله سبحانه وتعالى الإنسان، وأودعه الاستعداد الكامن، والأرضيّة الصالحة بإفاضة هذه الموهبة من الله سبحانه وتعالى ضمن شرائط وظروف موضوعيّة وذاتيّة معيّنة.

الحسُّ وأثره في تربية الإنسان

وهنا أُريد أن أتناول جانباً واحداً من ضرورة الوحي؛ فأقول: إنّ الإنسان خُلق حسّياً أكثر منه عقلياً، خُلق يتفاعل مع حسّه أكثر ممّا يتفاعل مع عقله، بمعنى أنّ النظريّات والمفاهيم العقليّة العامّة في إطارها النظري، حتّى لو آمن بها الإنسان إيماناً عقلياً، ودخلت إلى ذهنه دخولاً نظرياً، فهي لا تهزّه، ولا تحرّكه، ولا تبنيه، ولا تزعزع ما كان فيه، ولا تنشئه من جديد إلّا في حدود ضيّقة جدّاً.

الحسّ هو المربّي في الدرجة الأُولى لإنسانٍ هذا مزاجُه وهذا وضعُه. والعقل هو المربّي، في الدرجة الثانية، لإنسانٍ هذا وضعه وهذا مزاجه.

بناءً على هذا، كان لا بدّ للإنسانيّة من حسٍّ مُربٍّ زائداً على العقل والمدَركات العقليّة الغامضة، لأنّ الإنسان لا يستوعب المدَركات العقليّة بسهولة، فهي بالنسبة إليه، قد تكون غامضة ويكتنفها الضّباب، فتدخل إلى ذهنه في قوالب غير واضحة.

إضافة إلى هذه القوالب، كان لا بدّ للإنسان من مُربٍّ حسّيٍّ، أي أساسه الحسّ، كي يتربّى على أهداف السّماء من مُثُلٍ وقيمٍ واعتبارات؛ وهذا هو السبب في أنّ أيّ إنسان وأيَّ حضارة وأيّ مَدَنيّةٍ انقطعت عن السماء لم يربِّها العقل، بل ربّاها الحسّ وحده.

فكان لا بدّ من خلق حسٍّ في الإنسان يدرك تلك القِيم والمُثل والمفاهيم، ويدرك التضحية في سبيل تلك القيم والمثل إدراكاً حسّياً، لا إدراكاً عقلانياً بقانون الحُسْن والقبح العقليّين فقط، حتّى تُبعث فيه إنسانيّته الكاملة، الممثّلة لكلّ جوانب وجوده الحقيقيّة فيدركها، كما ندرك محسوساتنا، ومسموعاتنا ومبصراتنا.

وهذا معنى ما قلناه من أنّ ضرورة الإنسانيّة في خطّ التربية، تفرض أن يودَعَ في طبيعة تكوينه وخلقِه أرضيّة صالحة لأنْ تكوّنَ مِثْلَ هذا الحسّ، فيحسّ بحُسن العدل، وبقُبح الظلم، وبآلام

المظلومين، أي أنْ تكوّن حسّاً بكلّ ما يمكن للعقل، وما لا يمكن للعقل إدراكُه من قيمٍ ومُثلٍ واعتبارات.

وهذه الأرضيّة أو هذا الاستعداد الكامن الذي كان لا بدّ من خلقه في طبيعة الإنسان هو استعداد الوحي، أي استعداد الارتباط المباشر بالله سبحانه وتعالى؛ لكي تنكشف كلُّ السحب والستائر عن كلّ القيم والمُثل وكلّ هذه الاعتبارات والأهداف العظيمة، لكي تُرى رؤية العين وتُسمع سماع الأُذن، ولكي يلمَسَها بيده، ويراها بعينه، ويشمّها، ويتذوّقها.

كان لا بدّ من من وجود هذه البذرة - بذرة مثل هذا الحسّ - في النوع البشري، إلّا أنّ وجدان هذه البذرة في النوع البشري لا يعني أنّ كلّ إنسانٍ سوف يصبح له مثل هذا الحسّ، سوف يتفتّق إدراكه عن مثل هذا الحسّ، وإنّما يعني أنّ الإمكانيّة الذاتيّة موجودة فيه، إلّا أنّ هذه الإمكانيّة لن تخرج إلى مرحلة الفعليّة إلّا ضمن شروطها وظروفها وملابساتها الخاصّة، كأيّ إمكانيّةٍ أُخرى في الإنسان.

مراتب الحسّ

أرضيّة أن يحسَّ الإنسان بتلك القيم والمُثُل، تصبح أمراً واقعاً في أشخاص معيّنين يختصّهم الله تبارك وتعالى بعنايته ولطفه واختياره، وهؤلاء هم الأنبياء، والمرسَلون، الذين يرتفعون إلى مستوى أنْ تصبح المعقولات الكاملة محسوساتٍ لديهم، ذلك أنّ الأفكار التي ترِد إلى ذهن الإنسان [على نحوَين]:

- فتارةً تَرِد وهو لا يدرك مصدرها إدراكاً حسّيّاً.

- وتارة أخرى ترد وهو يدرك مصدرها إدراكاً حسّيّاً.

كلّنا نؤمن بأنّ الأفكار التي تَرِد إلى ذهن الإنسان وإلى فكره هي بقدرة الله وعنايته، لكن إيماننا بذلك إيمانٌ عقليّ، نظريّ، لا أنّنا نحسّ بأنّ الله تعالى هو مصدر العلم والمعرفة والأفكار الخيّرة في ذهن الإنسان.

فهناك، إذاً، فارقٌ كبيرٌ بين حالتَين:

١- حالةِ أنْ تَرِدَ فكرةٌ إلى ذهن إنسان، فيحسّ هذا الإنسان بأنّ هذه الفكرة أُلقيت إليه من أعلى، بحيث يدرك إلقاءها من أعلى كما تدرك أنت الآن أنّ الحجر وقع من أعلى، وأنّ قطرة المطر وقعت من أعلى، يدرك هذا بكلّ حسّه، وبكلّ سمعه وبصره، يدرك أنّ هذا الفيض أُلقي عليه من قبل الله تعالى.

٢- وأُخرى لا يدرك هذا على مستوى الحسّ، يدرك أنّ هناك فكرةً تعيش في ذهنه، نيّرة، خيّرة، لكنّه لم يرَ بعينَيه، لم يرَ أنّ هناك يداً قذفت بهذه الفكرة إلى ذهنه.

القسم الثاني هو الأفكار الاعتياديّة، التي تعيش في أذهان الناس.

وأمّا القسم الأوّل - وهي الأفكار التي تُقذف في ذهن إنسان، فيتوفّر لديه حسٌّ بها بأنّها قُذفت إليه من الله تعالى - فهذه أيضاً على أقسام؛ لأنّ هذا الإنسان:

■ كلّنا نؤمن بأنّ الأفكار التي تَرِد إلى ذهن الإنسان وإلى فكره هي بقدرة الله وعنايته، لكنْ إيماننا بذلك إيمانٌ عقليّ، نظريّ.

■ الوحي الذي يتمثّل في اتصالٍ خاصٍّ بين الإنسان وبين الله هو ضرورةٌ من ضرورات تكريم الإنسان على وجه الأرض.

أ- تارةً قد بلغ حسُّه إلى القمّة، قد استطاع أن يحسّ بالعطاء الإلهي من كلّ وجوهه، من كلّ جوانبه، يسمعه ويبصره، ويراه من جميع جهاته، ويتفاعل معه بكلّ ما يمكن للحسّ أن يتفاعل مع حقيقة. وهذا هو الذي يُعبّر عنه بمصطلح الرّوايات بمقامٍ عالٍ من الأنبياء، مقام الرسول الذي يسمع الصوت ويرى الشخص أيضاً.

ب- وأُخرى يُفترض أنّه يحسّ بها من بعض جوانبها، وهو الذي عُبِّر عنه بأنّه يسمع الصوت ولا يرى الشخص، فهذا إحساس، إلّا أنّه إحساس ناقص.

ج- وقد يفترض أنّه أقلّ من ذلك، وهو الذي عبّر عنه في بعض الروايات بأنّه يرى الرؤيا في المنام. هنا يرى شيئاً، هذه الرؤيا المناميّة تختلف عن الرؤيا في اليقظة من حيث درجة الوضوح؛ فهنا فارقٌ كيفيٌّ بين الحسّ في الرؤيا المناميّة وبين الرؤيا في عالم اليقظة والانتباه الكامل.

هناك درجاتٌ من الحسّ، على وفق هذه الدرجات وُضعت مصطلحات: «الرسول»، و«النّبيّ»، و«المحدَّث»، و«الإمام» ونحوُ ذلك من المصطلحات، إلّا أنّ الذي يمثّل أعلى هذه الدرجات، هو الوحي المتمثّل في مَلَكٍ يتفاعل معه النبيّ تفاعلاً حسّيّاً من جميع جوانبه، كما كان يعيش سيّد المرسلين صلّى الله عليه وآله مع جبرائيل عليه الصلاة والسلام.

النّبيّ هو المربّي للآخرين

(بهذا الحسّ استنزل النّبيّ صلّى الله عليه وآله) القِيَم والمُثُل والأهداف والاعتبارات العظيمة من مستواها الغائم المبهم، والغامض العقلي، من مستوى النظريّات العموميّة، (و) أعطاها معالمَ الحسّ التي لا ينفعل الإنسان بشيء - كما قلنا - بقدر ما ينفعل بها.

ثمّ إنّ هذا الشخص الذي استطاع أن يربّيَه الحسُّ القائم على الوحي يصبح هو حسّاً مربّياً للآخرين؛ فالآخرون من أبناء البشريّة الذين لم تُتِح لهم ظروفهم وملابساتهم وعناية الله أن يرتفعوا إلى مستوى هذا الحسّ، فإنه سوف يُتاح لهم، على نحو غير مباشر، حسٌّ بالحسّ، لا حسٌّ بالحقيقة الإلهيّة مباشرة، حسٌّ بالمرآة، بالحقيقة الإلهيّة، فالثقافة الإلهيّة انعكست على هذه المرآة، والآخرون يحسّون بهذه المرآة، بينما النبيّ نفسه كان يحسُّ مباشرةً بتلك الثقافة الإلهيّة بما هي أمرٌ حسّي، لا بما هي أمرٌ نظريّ.

فالوحي - بحسب الحقيقة إذاً - هو المربّي الأوّل للبشريّة، والذي من دونه لم يُمكن للبشريّة أن تتربّى على المُثل والقيم الإنسانيّة، لأنّ البشريّة بدون الوحي ليس لديها إلّا حسٌّ بالمادة وما على المادة من ماديّات، وليس لديها إلّا إدراكٌ عقليٌّ غائمٌ قد يصل إلى مستوى الإيمان بالقيم والمُثُل وبالله، إلّا أنّه إيمانٌ نظريّ على أيّ حال، لا يهزّ قلب هذا الإنسان ولا يدخل إلى ضميره، ولا يصنع كلّ وجوده، ولا يتفاعل مع كلّ مشاعره وعواطفه.

فكان لا بدّ من أن يُستَنزل ذاك العقل إلى مستوى الحسّ، لا بدّ أن تُستَنزل تلك المعقولات إلى مستوى الحسّ، وحيث إنّ هذا ليس بالإمكان أن يُعمل مع كلّ الناس؛ لأنّه ليس كلّ إنسان مهيّأً لهذا، اختُصّ، إذاً، بهذه العمليّة أُناسٌ معيّنون أوجدَ الله تبارك وتعالى فيهم الحسَّ القائدَ الرائد، "..." ثمّ خلق حسّاً ثانويّاً، وجوداً حسيّاً ثانويّاً، هذا الوجود الحسّي الثانوي كان هو المربّي للبشريّة.

استنزال القيم العقليّة إلى مستوى المحسوسات

إذا كان هذا حقّاً، فيجب أن نخطّط لأنفسنا، ونخطّط في علاقتنا مع الآخرين على هذا الأساس، أن لا نكتفي بأفكار عقليّة نؤمن بها، نضعها في زاوية عقلنا كإيمان الفلاسفة بآرائهم الفلسفيّة، بل يجب أن نحاول أن نستنزلها إلى أقصى درجة ممكنة من الوضوح الحسّي.

طبعاً، نحن لا نطمع أن نكون أنبياء، لا نطمع أن نحظى بهذا الشرف العظيم الذي انغلق على البشريّة بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وآله، ولكن مع هذا (الوضوح)، مقولٌ بالتشكيك على حسب اصطلاح المناطقة.

ليس كلّ درجة من الوضوح معناها النبوّة، هناك ملايين من درجات الوضوح قبل أن تصبح نبيّاً، وهذه الملايين بابها مفتوحٌ أمامنا، ولا بدّ لنا أن لا نزهد في هذا التطوير العقلي للقيم والمُثل الموجود عندنا، ولا بدّ لنا أن نطمع في أكثر من هذا من الوضوح، وفي أكثر من هذا من التحدّد ومن الحسّية، ولا بدّ لنا أن نفكّر في أن نُعبّئ كلَّ وجودنا بهذه القيم والمُثُل؛ لكي تكون على مستوى المحسوسات بالنسبة إلينا.